الرجاء في القرآن الكريم

الرجاء هو الأمل وعدم اليأس. وقيل إنّه التوقع لما فيه خير ونفع، أو تعلق القلب بحصول محبوب مرغوب مستقبلاً، والإنسان بلا أمل أو رجاء يضيق في وجهه كلّ واسع، ويبعد كلّ قريب، ويعسر كلّ ميسور، ولذلك قال القائل الحكيم:

أعلل النفس بالآمال أرقبها *** ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الرجاء في مواطن منه، وجعله سمة من سمات المؤمنين، وصفة من صفات المؤمنين، فقال في سورة البقرة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة/ 218). وقال في سورة الإسراء: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (الإسراء/ 57). وأشار إلى استحسان التعلق برحمة ا والرجاء لفضله: فقال: (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا مَيْسُورًا) (الإسراء/ 28).

وجعل القرآن المجيد خير أنواع الرجاء هو الرجاء في ا، وفي ثوابه عند لقائه في الدار الآخرة، فقال في سورة الكهف: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف/ 110). وقال في سورة العنكبوت: (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (العنكبوت/ 5). وقال فيها أيضاً: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (العنكبوت/ 36). وضمن للمتقين تحقيق حسن الرجاء، فقال في سورة فاطر: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) (فاطر/ 29).

بل جعل القرآن الحكيم صدق الرجاء عاملاً من عوامل النصر والغلبة على الأعداء، فقال سبحانه في سورة النساء: (وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ

يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (النساء/ 104). وكأنّه بهذا يقول لهم إنّكم ترجون من الله ما لا يرجون، لأنكم تعلمون من الله تعالى ما لا يعلمون، وتخصونه سبحانه بالعبادة والاستعانة، وهم مشركون، وقد وعدكم الله إحدى الحسنيين – النصر أو الجنّة بالشهادة – إذا كنتم للحقّ تنصرون، وعن الحقيقة تدافعون. فهذا التوحيد في الإيمان، وهذا الوعد من الرحمن، هما مدعاة الأمل والرجاء، ومنفاة اليأس والقنوط، والرجاء يبعث القوة، ويضاعف العزيمة، فيثابر صاحبه على العمل بالصبر والثبات. واليأس يميت العزيمة ويضعف الهمة، فيغلب على صاحبه الفتور والجزع.

والقرآن الكريم يفتح أبواب الرجاء والأمل أمام عباد الله المؤمنين، ليدخلوها فيتمتعوا بخير هذه الفضيلة الأخلاقية الجليلة: فضيلة الرجاء والأمل وحسن الظن، فيقول عن المؤمنين في سورة آل عمران: (اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) (آل عمران/ 174-172).

ويشير الحقّ جلّ جلاله إلى المواطن الشديدة التي ينبغي أن يتحلى فيها المؤمن بحسن الرجاء في الله، لأنّه المنقذ منها، فيقول في سورة النحل: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النمل/ 63-62).

وورد في الحديث القدسي ما يدعو إلى التحلي بالرجاء في الله، والحث على حسن الظن به، فقال: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما يشاء". وقال: "يا ابن آدم، انّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي". وأكّد الحديث النبوي هذا المعنى الجميل النبيل فقال: "لا يموتن أحدكم إلّا وهو يحسن الظن بربّه".

وينبغي أن نفهم أنّ الرجاء يستعمل بمعنى الخوف في لغة القرآن، وذلك لأنّ الراجي يخاف ألا يحقق أمله، ومن قبيل استعماله مادة الرجاء بمعنى الخوف قول الله تعالى: (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) (نوح/ 13). أي ما لكم لا تخافون لله عظيمة؟.

والرجاء والخوف في مفهوم مهذبي الأخلاق ومؤدبي الأرواح يتلازمان: لأنّ التطلع إلى المرغوب يصحبه توقع لحدوث المكروه، فيظل الإنسان راجياً وهو خائف، ويظل خائفاً وهو راج، وبذلك يكون على الصراط.

ولذلك قالوا إنّ الرجاء ذو شعب ثلاث هي: العلم والمال والعمل، فالعلم يثمر المال، والمال يقتضي العمل، وعنوا كثيراً بالتأكيد على تلازم الرجاء والعمل، حتى لا يكون تمنياً كاذباً، ومما يشير إلى اقتران الرجاء بالعمل قول الله جلّ جلاله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ) (البقرة/ 218). وكذلك قوله: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا) (الكهف/ 110).

وإذا تعرفنا إلى درجات الرجاء وجدنا أولاها وأعلاها هي رجاء المؤمن الذي يعمل لطاعة الله، على نور من الله. وهو يرجو ثوابه، وأقل منها درجة هي رجاء من أذنب ذنوباً ثمّ تاب منها، فهو يرجو عفو الله وغفرانه وإحسانه، وأحط الدرجات رجاء من يتمادى في الخطأ والإهمال، ثمّ يرجو رحمة ربه بلا عمل، وهذا رجاء كاذب، لأنّ الرجاء لا يصدق إلا مع العمل.

وإذا كان الرجاء فضيلة كبرى في ميدان مكارم الأخلاق، فإنّ ضده وهو القنوط أو اليأس، ولذلك نهى القرآن عن اليأس أو القنوط فقال في سورة الحجر: (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ) (الحجر/ 56-55). وقال في سورة الزمر: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53). وقال في سورة يوسف: (وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (يوسف/ 87).

وأما المؤمن الذي هداه الرحمن ورباه القرآن، فانّه يعتصم بحبل الله القوي المتين، ويستضيء بهدي ربّه المبين، فيظل متمسكاً بعروة الأمل والرجاء، إن نالته نعمة شكر، وإن ابتلاه الله احتمل وصبر، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

وإذا كان الرجاء فضيلة أخلاقية إسلامية مطلوبة محبوبة، فلابدّ أن يكون لها حكمة وفائدة وثمرة، ومن هذه الفوائد:

1- إظهار العبودية والافتقار إلى الله، والحاجة إلى ما يرجوه من ربّه، ويتطلع إليه من إحسانه، وأنّه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

2- إنّ الله سبحانه يحب من عباده أن يرجوه ويسألوه من فضله، لأنّه الملك الواسع الجود والعطاء، وهو أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب شيء إلى الجواد أن يسأله السائلون ويرجوه الراجون، حتى ورد في الحديث: "مَن لم يسأل الله يغضب عليه".

3- الرجاء حاد يحدو الراجي في مسيرته إلى ربّه، ويحثه عليها، فلولا الرجاء ما سار أحد، فإنّ الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحرّكه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

4- إنّ الرجاء يضع صاحبه على عتبة الحب، ويدخله ساحته، فكلما اشتد رجاء العبد، وحصل له ما يرجوه، إزداد حباً لله تعالى، ورضى عنه، وشكراً له.

5- إنّ الرجاء هو الذي يبلغ بصاحبه المقام الأعلى: مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

6- الرجاء يوجب لصاحبه المزيد من معرفة صفات الله وأسمائه الحسنى، فيتعلق بها ويدعوه بها، كما قال الحقّ جلّ جلاله: (وَلِلّهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (الأعراف/ 180). وهذه الأسماء هي أعظم ما يدعو بها الداعي.

7- إنّ الله تبارك وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته، من الذل والانكسار، والتوكّل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والإنابة، وغيرها، فالرجاء عنصر من عناصر التكملة لهذه العبودية.

8- في الرجاء انتظار وترقب وتوقع لفضل الله، وهذا يجعل القلب متعلقاً على الدوام بذكر الله، موصول الالتفات إليه، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان معه سعد وفاز.

اللّهمّ لا تحرمنا نعمة الرجاء فيك، والأمل في كرمك وفضلك!